محاضرات

أدب المغرب والأندلس
(النثر والموشحات)

الفرقة الثالثة
قسم اللغة العربية وآدابها

أ.م.د.مروة شحاته
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
جامعة دمنهور

المحاضرة : الثانية
المادة : أدب المغرب والأندلس (النثر والموشحات)
الفرقة : الثالثة
الموضوع : المناظرات

تختلف المناظرة الأدبية عن غيرها من المناظرات في أنها تسعى لإثبات الجدارة والاستحقاق والريادة ، وتهدف إلى اكتساب المجد والإعجاب والثناء ؛ ولهذا فهي تبتعد عن أسلوب التجريح والقدح ، وقد تميزت المناظرة الأدبية في الأندلس ، زيادة على ذلك ، بكونها جمعت بين قُوَّة الحُجَّة ورَوعَة الأُسْلُوب مُسَجِّلَةً بذلك أروع الصفحات في سِجِّل الجِدَال الأَدَبِي ، ويهدف الكاتب في المناظرة إلى إظهار مقدرته البيانيَّة وبراعته الأُسْلُوبِيَّة .

مُنَاظَرَةُ السَّيفِ وَالقَلَمِ لابْن بُرْد الأَصْغَر :

مناظرة بين السيف والقلم **لابن بُرْد الأَصْغَر** ، وقد رَمَزَ بِالسَّيفِ لِرِجَالِ الجيش ، وبالقلم لأرباب الفكر ، ثُمَّ أَجْرَى الحِوَارَ بَينَهُمَا ، وانتهى إلى ضرورة العَدل في المعاملة بين الطَّائِفَتَينِ ، وقد كَتَبَها ابن بُرْد الأَصْغَر إلى المُوَفَّق **أبي الجيش مجاهد** ، يقول فيها : « أَمَّا بَعد حمد الله بجميع مَحَامِدِهِ وآلائِهِ ، والصَّلاة على خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ؛ فإنَّ التسابقَ من جوادين سبقا في حَلْبَة ، وقَضيبَين نُسِقَا فِي تُرْبَة ، والتحاسُدَ من نجمين أنارا في أُفُق ، وسَهْمَينِ صَارَا عَلَى نَسَق ، والتفاخرَ من زهرتين تَفَتَّحَتَا من كِمَامَة ، وبارقتين توضَّحتا من غَمَامَة ؛ لأحمدُ وجوهِ الحَسَد ، وإن كان مذمومًا مَعَ الأَبَدِ ، ورُبَّما امْتَدَّ أحدُ الجوادين بخُطْوَة ، أو خُصَّ أحدُ القضيبينِ برَبْوَة ، أو كان أحدُ السَّهمين أنفذَ مصيرًا ، أو رَاحَ أَحَدُ النَّجمينِ أضوأ تنويرًا ، أو غَدَتْ إحدى الزَّهرتين أندى غَضارة ، أو أمستْ إحدى البارقتين أسنى إنارة ؛ فالمُقَصِّر يرتقبُ تقدمًا ، وتَقَارب الحالتين في المُجَانَسَة يَشُب نار المُنَافَسَة ، وإنْ حَالَ بَينَهُمَا قَدْح النَّقَّاد ، وقَبُحَ تَحَاسُد الأضداد .

وإنَّ السَّيف والقلم لَمَّا كانا مصباحين يهديان إلى القصد ، مَنْ بَاتَ يَسْرِي إلى المجد ، وسُلَّمَين يلحقان بالكواكب ، مَنْ ارتقى لساماتِ المراتب ، وطريقين يَشرعان نهج الشَّرَفِ لِمَنْ تَقَرَّى إليه ، ويَجْمَعَانِ شَمْلَ الفَخْرِ لِمَنْ تأشب عليه ، ووسيلتين يُرْشفان العُلا فم عاشقها ، ويبسطانِ فِي وِصَالِ المُنَى يَدَ وامقها ، وشفيعينِ لا يُؤَخَّر تشفيعُهَمَا ، ومُجَمَّعَينِ لا يُفَرَّق تجميعهما ، جَرَّرَا أذيال الخيلاءِ تَفَاخُرًا ، وأَشَمَّا بأنف الكبرياء تنافُرًا ، وادَّعَى كُلٌّ واحدٍ منهما أنَّ الفوز لِقِدْحِه ، وأنَّ الوَرْي لِقَدْحِهِ ، وأنَّ الدُّرَّ من أصدافه ، وأن البِكْر من زفافه ، وأنَّ البِنَاءَ مِنْ

تشييده ، وأنَّ المُلاء مِنْ تَعْضِيدِهِ ، وأنَّ كِبَاءَ الثَّنَاء موقوفٌ على مَجَامِرِهِ ، وأن خطيب الفخر محبوسٌ على مَنَابِرِهِ ، وأنَّ حُلل المآثر من نَسِيجِهِ ، وأنَّ أفراد المفاخر من تَزْوِيجِهِ ، وحين كشف الجِدَالُ قِنَاعه ، ومدَّ الخصامُ ذِرَاعه ، وهَزَّ الإباءُ من عطفه ، وأشمَّ الأنفُ من أنفه ، قَامَا يَتَبَارَيَانِ في المَقَالِ ، ويَتَسَاجَلانِ في الخِصَال ، ويَصِفُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جَلال نفسِه ، ويَذْكُرُ فَضْلَ ما اُجْتُنِي مِنْ غَرْسِه ، ويَبأى بمنقبة نافرت السُّهَا ، ومرتبة رَيّضةٍ خَيَّسَهَا ، ورِيَاسَة مِنْ ذَوَائِبِ الجَوزَاءِ صَادَهَا ، ونَبَاهَة فِي صَهْوَة العَيُّوقِ أَفَادَهَا .

فقال القَلم : ها ، اللهُ أكبرُ ! أَيُّهَا المُسَائِل بَدْءًا يَعْقل لِسَانك ، ويُحَيِّر جَنَانك ، وبديهة تَمْلأُ سَمْعَكَ ، وتُضَيِّق ذَرْعَكَ ؛ خيرُ الأقوالِ الحقّ ، وأحمدُ السَّجَايا الصِّدْق ، والأفضلُ مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في تنزيله ، مُقْسِمًا به لرسوله ؛ فقال : ﴿ن ، والقَلم ومَا يَسْطُرُون﴾ (القلم : ١) ، وقال : ﴿اقْرَأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ﴾ (العلق :٤) فَجَلَّ مِنْ مُقْسِم ، وَعَزَّ مَنْ قَسَم ؛ فَمَا تَرَانِي ، وقَدْ حَلَلْتُ بَينَ جَفْنِ الإيمان وناظره ، وجُلْتُ بَينَ قَلْبِ الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذتُ الفَضْلَ بِرُمَّتِهِ ، وقُدْتُ الفخر بِأَزِمَّتِهِ .

فقال السَّيف : عُدْنَا من ذِكْرِ الطبيعة إلى ذِكْرِ الشريعة ، ومن وَصْفِ الخَصْلَة إلى وَصْفِ المِلَّة ، لا أُسِرُّ ولكن أُعلن ، قيمةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ ؛ إنَّ عَاتِقًا حَمَلَ نِجَادِي لَسَعِيد ، وإنَّ عَضُدًا بَاتَ وِسَادِي لَسَدِيد ، وَإنَّ فَتًى اتَّخَذَنِي دَلِيلَه لَمُهْدِيّ ، وَإنَّ امْرَأً صَيَّرَنِي رَسِيلَه لَمَفْدِيّ ، يَشُقُّ مِنِّي الدُّجَى بِمِصْبَاح ، وَيُقَابِلُ كُلّ بَابٍ بِمِفْتَاح ، أُفْصِحُ وَالبَطَلُ قَدْ خَرِس ، وَأَبْتَسِمُ والأَجَلُ قَدْ عَبَس ، أُقْضِي فَلا أُنْصِف ، وأُمْضِي فَلا أَصْرِفُ ، أُزْرِي بِالوَفَاء ، وَأَهْتِكُ اللأمة هَتْكَ الرِّدَاء .

فقال القَلم : نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَورِ بَعْدَ الكَوَرِ ، وقُبْحًا لِلتَّحَلِي بِالجور ، والخيانة تُسَوِّدُ ما بَيَّضَ الصفاء ، وتُكَدِّرُ مَا أَخْلَص الإِخْاء ، وتُوكِد أسبابَ الفِتَن ، وتَضْرِب بِقِدَاح الفِتَن ، الحَقّ أَبْلَج ، والبَاطِل لَجْلَج ، إنْ تَأْبَى النصفة فإنها فِي قِدْحِهَا لمأمونَة الطَّائِر ، مَحْمُودَة البَاطِن وَالظَّاهِر ، أحكم فأعْدل ، وأشهدُ فأُقبل ، وتَرحل عَزَماتِي شَرْقًا وغَرْبًا ولا أرحل ، أعدُ فأفي ، وأستكفي فأكفي ، أحلب الغِنَى من ضُرُوعِه ، واجتني النَّدى مِنْ فُرُوعِهِ ، وهَلَ أَنَا إلاَّ قُطْبٌ تَدُورُ عَلَيه الدُّوَل ، وجَوَادٌ شَأْوُهُ يُدْرِكُ الأمل ، شفيع كُلّ مَلِك إلى مطالبه ، ووسيلته إلى مكاسبه ، وشاهدُ نَجْوَاه قبل كُلِّ شَاهِد ، ووَارِدُ مَعْنَاهُ قبل كُلِّ وَارِد .

فقال السيف : يالله ! استَتَّت الفِصَالُ حَتَّى القَرْعَى ، ورُبَّ صَلَف تحت الرَّاعِدَة ، لقد تحاول امتدادًا بِبَاعٍ قَصِيرة ، وانتفاضًا بِجَنَاحٍ كسيرة ، أمستعربٌ والفلس ثمنك ، ومستجلَبٌ وكل بُقْعَةٍ وَطَنك ؟ جسم عار ، ومدع بار ، تَحْفَى فتُنعل بَرْيًا ؛ حَتَّى يَعُودَ جِسْمك فَيًّا ، إنَّ المُلُوكَ لَتُبَادِر إلى دَرْكِي ، ولَتَتَحَاسد فِي مُلْكِي ، ولتتوارثني على النَّسَب ، ولتغالي فيّ على الحَسَب ؛

فتكلِّلني المَرْجان ، وتُنْعلني العِقْيَان ، وتُلْحِفَني بِخَلَل كَحُلَل ، وحَمَائِل كَحَمَائِل ؛ حَتَّى أبرز بِراز الهنديّ يوم الجلاء ، والروض غِبَّ السَّمَاء .

فقال القلم : مَنْ سَاء سَمْعًا سَاء إجابةً ، أَسْتَعِيذُ بالله من خَطَلٍ أَرْعَيتَ فِيهِ سَوَامَك ، وزَلل افْتَتَحْتَ بِهِ كَلامك ، إنَّ ازْدِرَاءَك بتمكُّن وِجْدَانِي ، وبَخْسِ أَثْمَانِي ؛ لَنَقْصٌ فِي طِبَاعِكَ ، وقَصْرٌ فِي بَاعِكَ ، أَلا وَإِنَّ الذَّهْبَ مَعْدِنُهُ في العفَر ، وهُوَ أَنْفَسُ الجَوَاهِر ، والنَّار مَكْمَنُهَا فِي الحجر ، وهِيَ إِحْدَى العَنَاصِر ، وإنَّ المَاءَ وَهو الحياة ، أكثر المعايش وجدانًا ، وأقلَّها أَثْمَانًا ، وقَلَّمَا تُقْلِي الأعلاق النَّفِيسة ، إلاَّ فِي الأَمْكِنَة الخَسِيسة ، وأمَّا التَّعَرِّي ؛ فغَنينا بالجمال عَنْ جَرِّ الأَذْيَال ، وهَلْ يُصْلَحُ الدُّرَّ حَتَّى يُطْرَح صَدَفُهُ ، أَو يبتهجُ الإغْرِيضُ حَتَّى يُشَذَّب سَعَفُه ، أَمْ يَتَلألأُ الصُّبْحُ حَتَّى تَنْجَلِي سُدَفُهُ ؟ إنَّ الضَّحاء للرِّجَال مَعْرُوف ، وإنَّ الخَفَر عَلَى النِّسَاءِ مَوقُوف ، وَلولا جَلاء الصَّياقل صدأك لأَسْرَعت ذَهَابًا ، وعُدْتَ مَعَ التُّرَاب تُرَابًا .

فَقَالَ السَّيفُ : جَعْجَعَة رحًى لا يَتْبَعُهَا طِحْن ، وجَلْجَلَة رَعْدٍ لا يَلِيهَا مُزْن ، فِي وَجْهِ مَالِكٍ تَعْرِفُ أَمَرَته ، وَجْه لَئِيم ، وَجِسْم سَقِيم ، وَغَرْب يُفَلّ ، ودَم يُطَلّ ، ودُمُوع سِجَام ، كَأَنَّهُنَّ سُخَام ، ورأس لم يتقلقل فيه لُبّ ، وجوف لم يتخضخض فيه قَلْب ، أَوحشُ مِنْ جَوفِ العَير ، يَشْهَدْ عَلَيهِ كَثْرَةُ الجُور بِقِلَّةِ الخَير ؛ فَهُبَّ مِنْ نَومِك ، وَأَفْطِر مِنْ صَومِك ، وَتَحَكَّمْ بِطَرْفٍ نَظَّار ، فِي جِسْمِ مَاءٍ وَحُلَّةِ نَار ، إنِ انْتَضَانِي جَاهِل ، أَوهَمْتُهُ أَنِّي سَائِل ؛ فَفَرَّ خَوفًا أَنْ يَغْرِقَ ، وَوَلَّى حَذِرًا أَنْ يَحْتَرِقَ ، فِي بَحْرٍ زَبَده الشُّعَل ، وبَرْق سَحابه الخِلَلِ ، لَو انتُضِيتُ وَالشَّمْس كَاسِفَة لَمْ يُنْظر وَقْتَ تَجَلِّيها ، أَو السُّنُون مُجْدِبَةٌ أَيقَن بِالحَيَا رَاعِيهَا ، قد خَطَّ الفِرِنْدُ فِي صَفْحَتَي أَمْثَال صِغَار الخِيلان ، فِي البِيض مِنْ صَفَحَاتِ الحِسَان ، أَكْرَع يَومَ الوَغَى فِي لبَّة البَطَل ؛ فَأَعُود كَالخَدِّ كُسِيَ صِبْغَ الخَجَل ، كَأَنَّمَا اشْتَمَلَتْ بِالشَّقِيق ، أَو شَرِبَتْ مَاءَ العَقِيق .

فَقَالَ القَلَم : إنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لاقَيتَ إعْصَارًا ، مَا كُلُّ بَيضَاء شَحْمَة ، وَلا كُلّ سَودَاء تَمْرة ، إنَّ مَاءَكَ السَّائِل لَجَامِد ، وَإِنَّ جِرْمَكَ المُلْتَهِب لَبَارِد ، وَلَنْ يَغْرَفُ فِيهِ حَتَّى تَكْرَعَ فِي السَّبَاسِبِ العِطَاش ، وَلَنْ يَحْتَرِقَ بِهِ حَتَّى يَقَعَ فِي نَارِ الحُبَاحِبِ الفَرَاش ؛ فَأَقْصِرْ عَنْ جَفْنِكَ مِنْ العَمَى رِوَاقًا ، وَاحْلُلْ مِنْ خَصْرِكَ لِلجَهْلِ نِطَاقًا ، يُسْفِرُ البَلاءُ لَكَ عَنْ قَضِيبِ عَاجٍ ، وَلِسَانِ سِرَاج ، وَقَدْح وَرق جُلِّلَ بِالعِقْيَانِ ، وَحُلَّة نَرْجِس فَوقَ جِسْمِ أُقْحُوَان ، للَّيل فِي فَودَيهِ لَطْخ ، وَلِلمِسْكِ فِي صُدْغَيهِ نَضْخ ، أَنْجَلِي عَنِ المَهَارِق ، انْجِلاء الغَمَام عَنِ الحَدَائِق ، وأَرْقَم فِي بُطُونِ الصُّحَف ، مَا لا يَرْقُمُ الرَّبِيع فِي الرَّوضَةِ الأُنُف ، مِنْ مُنَمْنِم يَخْتَالُ بَينَ مُسَهَّمٍ ، وَمُعَضَّدٍ فَوقَ مُسَرَّد .

وَلَمَّا كَثُرَ تَعَارِضُهَما ، وَطَالَ تَرَاوِضُهُمَا ، وَقَابَل كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِجَمْعِهِ جَمْعًا ، وَقَرَعَ بِنَبْعِهِ نَبْعًا ، وَلَمْ يَنْثَنِ أَحَدُ الصَّارِمِينَ كَهَامًا ، وَلا ارْتَدَّ أَحَد العَارِضَينِ جَهَامًا ، تَبَادَرَا إِلَى السِّلم ، يَعْقِدَانِ لِوَاءهَا ، وَإِلَى المُؤَالفة يَرِدَانِ مَاءَهَا ، وَقَالا إِنَّ مِنَ القَبِيحِ أَنْ تَتَشَتَّت أَهْوَاؤُنَا ، وَتَتَفَرَّق

آرَاؤُنَا ، وَقَدْ جَمَعَنَا اللهُ فِي المَأْلَفِ الكَرِيمِ ، وَأَحَلَّنَا بِمَحَلٍ غَيرِ ذَمِيمِ ، بِأَعْلَى يَدٍ نَالَتْ آمَالَهَا ، وَوَافَتْ المَطَالِب فِي أَوطَانِهَا ، وَلَمْ تُقَابِل بَابًا مُغْلَقًا إلاَّ قَرَعَتْهُ ، وَلا حِجَابًا مُضْلِعًا إلاَّ رَفَعَتْهُ ، وَلا جَدًّا عَاثِرًا إلاَّ أَقَالَتْهُ ، وَلا أَمَلاً غَائِرًا إلاَّ أَسَالَتْهُ – تِلْكَ يَدُ المُوَفَّق أَبِي الجَيش مَولَى المَعَالِي وَمُسْتَرَقَّهَا ، ومُسْتَوجِبِ المَكَارِمِ وَمُسْتَحِقَّهَا ، العَاقِد لِوَاء المَجْدِ بِذَوَائِبِ السِّمَاك ، والمُطِلِّ بِفَخْرِهِ عَلَى الأَفْلاكِ ، وَالمُقَدَّمُ إذَا أَحْجَمَتِ الأَبْطَالُ ، وَالضَّاحِكُ إذَا بَكَتِ الآجَال ، والسَّارِي إلَى العَلْيَاءِ إذَا أَدْلَجَ الكِرَام ، وَالمُسَهَّد فِي الآرَاءِ إذَا هَجَدَ الأَنَام ، وَالطَّالِب ثَأْر العَدِيم بِجُودِهِ ، وَالمُشْفِع النِّيل بِمَزِيدِهِ ، وَالمُسْعِفُ لِمِيعَادِهِ ، وَالمُخْلِفُ لإِيعَادِهِ ، وَالمُجْرِي فِي ذَاوِيَاتِ الهِمَمِ مَاءً ، وَالمُطْلِع فِي ظُلُمَاتِ الآمَالِ سَنَاءً ؛ فَإِذَا قَدْ عَدَلَ بَينَنَا بِحُكْمِهِ ، يَومَ وَغَاهُ وَيَومَ سِلْمِه ؛ فَجَاوَزَ بِكَ حَدَّ المُسَالَمَة ؛ وَجَاوَزَ بِي حَدَّ المُشَارَسَة ، وَلَمْ يُثْنِكَ حَتَّى بَلَغَ مُنَاه ، وَلَمْ يَثْنَنِي حَتَّى وَافَقَ هَوَاه ، وَلَمْ يَقْصُرُ بِي عَنْ غَايَةٍ بَلَّغَكَ إلَيهَا ، وَلَمْ يُقَدِّمْكَ إلَى مَرْتَبَةٍ أَخَّرَنِي عَنْهَا ؛ فَأَجْمَل رِدَاءٍ نَرْتَدِيهِ ، وَأَفْضَل حِذَاءٍ نَحْتَذِيه ، وَأَهْدَى سَبِيلٍ نَقْصِدُهُ ، وَأَصْفَى مَنْهَلٍ نَرِدُهُ ، مُؤَالَفَة نُجَرِّرُ ذَيلَهَا ، وَنَمِيلُ مَيلَهَا ، وَمُعَاشَرة نَتَجَانَى ثِمَارَهَا ، وَنَتَعَاطَى عُقَارَهَا ، وَذُنُوبٌ نُخْلِي أَوطَانَهَا ، ونَهْدِمُ بُنْيَانَهَا ، وَدِمَنٌ نُعَفِّي دِمْنَهَا ، وَنَرِدُّ فِي أَجْفَانِهَا وَسَنها .

ثُمَّ قَالَ القَلَم : إنَّ مِمَّا نُبْرِمُ بِهِ عَقْدنا وَنَنْظُمُ عِقْدَنَا ، ويَسْتَظْهِرُ بِهِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْض ، إنْ حَالَتْ حَال ، كَانَ لِلدَّهْرِ انْتِقَال ، أَنْ نَخَطَّ كِتَابًا مُصِيبًا ، يَكُونُ لَنَا مَنَابًا وَعَلَينَا رَقِيبًا ؛ فَقَدْ يَدِبُّ الدَّهْر بعقاربه ، بين المرء وأقاربه ، ويَسْعَى بِالنَّمِيمَة ، بَينَ الفَرْعَينِ مِنَ الأَرُومة .

فقال السَّيف : أَنْتَ وَالبَيان ، وَجَرْيًا وَالمَيدَان ؛ فقال القلم : إنَّ النَّثْر فِي ذَلِكَ مَثَلٌ يسير ، وإن الشعر في ذلك ذكر خطير ، وإنه لشدو الحادي ، وزاد الرائح والغادي ، وأختارُه على النثر ؛ تَنْوِيهًا بالذكر ؛ فقال :

قَدْ آنَ لِلسَّيفِ أَلاَّ يَفْضُلُ القَلَمَا ... مُذْ سُخِّرَا لِفَتًى حَازَ العُلا بِهِمَا

إنْ يُجْتَنَى المَجْدُ غَضًّا مِنْ كَمَائِمِهِ ... فَإِنَّمَا يُجْتَنَى مِنْ بَعْضِ غَرْسِهِمَا

مَا جَارِيًا أَمَلاً فَوَافَيَا أَمَدًا ... إلاَّ وَكَانَتْ خِصَالُ السَّبْقِ بَينَهُمَا

سَقَاهُمَا الدَّهْرُ مِنْ تَشْتِيتِهِ جُرَعًا ... وَلِلِيَالِي صُرُوفٌ تَقْطَعُ الرَّحِمَا

حَتَّى إذَا نَامَ طَرْفُ الجَهْلِ وَانْتَبَهَتْ ... عَينُ النُّهَى قَرَعًا سُنِيِّهِمَا نَدَمَا

رَاحًا بِكَفِّ أَبِي الجَيشِ التِي خَلَقَتْ ... غَمَامَةً كُلُّ حِينٍ تُمْطِرُ النِّعَمَا

فَعَادَ حَبْلُهُمَا المُنْبَتُّ مُنْعَقِدًا ... وَرَاحَ شَمْلُهُمَا المُنْفَضُّ مُلْتَئِمَا

يَا أَيُّهَا المَلِكُ السَّامِي بِهِمَّتِهِ ... إلَى سَمَاءِ عُلاً قَدْ أَعْيَتِ الهِمَمَا

لَولا طِلابِي غَرِيبَ المَدْحِ فِيكَ لَمَا ... وَصَفْتُ قَبْلَ عُلاكَ السَّيفَ وَالقَلَمَا

وَإِنَّمَا كَانَ تَعْرِيضًا كَشَفْتُ بِهِ ... مِنَ البَلاغَةِ وَجْهًا كَانَ مُلْتَثِمَا» .

مُنَاظَرَةُ صَفْوَان بْن إِدْرِيس بَينَ مُدُنِ الأَنْدَلُسِ :

خَاطَبَ بها أديب الأندلس **أَبُو بَحْر صَفْوَان بْن إِدْرِيس** الأمير **عبد الرحمن بن السلطان يُوسُف بْن عَبْد المُؤْمِن بْن عَلِيّ** ، يقول : « مَولاي ، أَمْتَعَ اللهُ بِبَقَائِكَ الزَّمَانَ وَأَبْنَاءَهُ ، كَمَا ضَمَّ عَلَى حُبِّكَ أَحْنَاءَهُمْ وَأَحْنَاءَهُ ، وَوَصَلَ لَكَ مَا شِئْتَ مِنَ اليُمْنِ وَالأَمَانِ ، كَمَا نَظَمَ قَلائِدَ فَخْرِكَ عَلَى لَبَّةِ الدَّهْرِ نَظْمَ الجُمَانِ ؛ فَإِنَّكَ المَلِكُ الهُمَامُ ، وَالقَمَرُ التَّمَامُ ، أَيَّامُكَ غُرَر وَحُجُول ، وَفِرِنْدُ بَهَائِهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّهْرِ يَجُول ، أَلْبَسْتَ الرَّعِيَّةَ بُرُودَ التَّأْمِينِ ؛ فَتَنَافَسَتْ فِيكَ مِنْ نَفِيسٍ ثَمِين ، وَتَلَقَّتْ دَعَوَات خُلْدَك لَهَا بِاليَمِينِ ؛ فَكَمْ لِلنَّاسِ ، مِنْ أَمْنٍ بِكَ وَإِينَاسِ ، وَلِلأَيَّامِ ، مِنْ لَوعَةٍ فِيكَ وَهُيَام ، وَلِلأَقْطَارِ ، مِنْ لُبَانَاتٍ لَدَيكَ وَأَوطَار ، وَلِلبِلادِ ، مِنْ قِرَاعٍ لَهَا عَلَى تَمَلُّكِكَ لَهَا وَجِلاد ، يَتَمَنَّونَ شَخْصَكَ الكَرِيمَ عَلَى اللهِ وَيَقْتَرِحُونَ ، وَيَغْتَبِقُونَ فِي رِيَاضِ ذِكْرِكَ العَاطِرِ بِمُدَامِ حُبِّكَ وَيَصْطَبِحُونَ ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيهِمْ فَرِحُون﴾ (الروم :٣٢) مَحَبَّةً مِنَ اللهِ أَلْقَاهَا لَكَ حَتَّى عَلَى الجَمَادِ ، وَنَصْرًا مُؤْزَرًا تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَةُ السُّيُوفِ عَلَى أَفْوَاهِ الأَغْمَادِ ، وَمِنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا ، وَمَنْ طَوَى حُسْنَ نِيَّةٍ خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالجَمِيلِ إِعَادَتها وَإِبْدَاءَهَا ، وَمَنْ قَدَّم صَالِحًا فَلا بُدَّ أَنْ يُوَازِيه ، وَمَنْ يَفْعَلُ الخَيرَ لا يَعْدَمُ جَوَازِيه . وَلَمَّا تَخَاصَمَتْ فِيكَ مِنَ الأَنْدَلُسِ الأَمْصَار ، وَطَال بِهَا الوُقُوفُ عَلَى حُبِّك وَالاقْتِصَار ، كُلُّهَا يُفْصِحُ قَولاً ، وَيَقُولُ : أَنَا أَحَقُّ وَأَولَى ، وَيُصِيخُ إِلَى إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ وَيُصْغِي ، وَيَتْلُو إِذَا بُشِّرَ بِكَ ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغ﴾ (الكهف :٦٤) ، تَنَمَّرَتْ حِمْصُ غَيظًا ، وَكَادَتْ تَفِيظُ فَيظًا ، وَقَالَتْ : مَا لَهُمْ يَزِيدُونَ وَيَنْقُصُونَ ، وَيُطْمِعُونَ وَيَحْرِصُون ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون﴾ (يونس :٦٦) . لِي السَّهْمُ الأَسَدّ ، وَالسَّاعِدُ الأَشَدّ ، وَالنَّهْرُ الذِي يَتَعَاقَب عَلَيهِ الجَزْرُ وَالمَدّ ، أَنَا مِصْر الأَنْدَلُس وَالنِّيل نَهْرِي ، وَسَمَاءُ التَّأَنُّس وَالنُّجُوم زَهْرِي ، إِنْ تَجَارَيتُمْ فِي ذَلِكَ الشَّرَف ؛ فَحَسْبِي أَنْ أَفِيضَ فِي ذِكْرِ الشَّرَفِ ، وَإِنْ تَبَجَحْتُمْ بِأَشْرَفِ اللُّبُوسِ ؛ فَأَيُّ إِزَارٍ اشْتَمَلْتُمُوه كَشَنْتَبُوس ، لِي مَا شِئْتَ مِنْ أَبْيِنَةٍ رِحَاب ، وَرَوضٍ يَسْتَغْنِي بِنُضْرَتِهِ عَنِ السَّحَابِ ، قَدْ مَلأْتُ زَهَرَاتِي وِهَادًا وَنِجَادًا ، وَتَوَشَّحَ سَيفُ نَهْرِي بِحَدَائِقِي نِجَادًا ؛ فَأَنَا أَولاكُمْ بِسَيِّدِنَا الهُمَامُ وَأَحَقّ ، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ (يوسف :٥١) .

فَنَظَرتها قُرْطُبَة شَزْرَا ، وَقَالَتْ : لَقَدْ كَثَّرْتِ نَزْرَا ، وَبَذَرْتِ فِي الصَّخْرِ الأَصَمِّ بزرَا ، كَلامُ العِدَى ضَرْبٌ مِنَ الهَذَيَانِ ، وَأَنَّى لِلإِيضَاحِ وَالبَيَانِ ، مَتَى اسْتَحَالَ المُسْتَقْبَحُ مُسْتَحْسَنًا ، وَمَنْ أَودَعَ أَجْفَانَ المَهْجُورِ وَسَنًا ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (فاطر :٨) . يَا عَجَبًا لِلمَرَاكِزِ تُقَدَّم عَلَى الأَسِنَّةِ ، وَلِلأَثْفَارِ تُفَضَّل عَلَى الأَعِنَّةِ ، إِنِ ادَّعَيتُمْ سَبْقًا ؛ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ وَأَبْقَى : لِي البَيتُ المُطَهَّرُ الشَّرِيفُ ، وَالاسْمُ الذِي ضَرَبَ عَلَيهِ رِوَاقَهُ التَّعْرِيفُ ، فِي بَقِيعَي مَحَلِّ الرِّجَالِ الأَفَاضِلِ ؛ فَلْيُرْغَمْ أَنْفُ المُنَاضِلِ ، وَفِي جَامِعِي مَشَاهِد لَيلَةِ القَدْرِ ؛ فَحَسْبِي مِنْ نَبَاهَةِ القَدْرِ ؛ فَمَا لأَحَدٍ أَنْ

يَسْتَأْثِرَ عَلَيَّ بِهَذا السَّيِّدِ الأَعْلَى ، وَلا أَرْتَضِي لَهُ أَنْ يُوطِئَ غَيرَ تُرَابِي نَعْلاً ؛ فَأَقِرُّوا لِي بِالأُبُوَّةِ ، وَانْقَادُوا عَلَى حُكْمِ البُنُوَّةِ ، ﴿وَلا تَكُونُوا كَالتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ (النحل :٩٢) ، وَكُفُّوا عَنْ تَبَارِيكُمْ ﴿ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ (البقرة :٥٤) .

فَقَالَتْ **غَرْنَاطَة** : لِي المَعْقِلُ الذِي يَمْتَنِعُ سَاكِنُهُ مِنَ النُّجُومِ ، وَلا تَجْرِي إِلاَّ تَحْتَهُ جِيَادُ الغَيمِ السَّجُوم ؛ فَلا يَلْحَقُنِي مِنْ مُعَانِدٍ ضَرَرٌ وَلا حِيف ، وَلا يَهْتَدِي إِلَيَّ خَيَالٌ طَارِق وَلا طَيف ؛ فَاسْتَسْلِمُوا قَولاً وَفِعْلاً ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ اليَومَ مَنِ اسْتَعْلَى ، لِي بِطَاحٌ تَقَلَّدَتْ مِنْ جَدَاوِلِهَا أَسْلاكًا ، وَأَطْلَعَتْ كَوَاكِب زَهْرِها فَعَادَتْ أَفْلاكًا ، وَمِيَاه تَسِيل عَلَى أَعْطَافِي كَأَدْمُعِ العُشَّاقِ ، وَبَرْدُ نَسِيمٍ يَرُدُّ ذَمَاءَ المُسْتَجِير بِالانْتِشَاقِ ؛ فَحُسْنِي لا يَطْمَعُ فِيهِ وَلا يَحْتَال ؛ فَدَعُونِي فَكُلُّ ذَاتِ ذَيلٍ تَخْتَالُ ؛ فَأَنَا أَولَى بِهذا السَّيِّدِ الأَعْدَلِ ، وَمَا لِي بِهِ مِنْ عِوَض وَلا بَدَل ، وَلِمَ لا يَعْطِف عَلَيَّ عِنَانِ مَجْدِهِ وَيَثْنِي ، وَإِنْ أَنْشَدَ يَومًا فَإِيَّايَ يَعْنِي:

بِلادٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

فَمَا لَكُمْ تَعْتَزُّونَ لِفَخْرِي وَتَنْتَمُونَ ، وَتَتَأَخَّرُونَ فِي مَيدَانِي وَتَتَقَدَّمُونَ ، تَبَرَّأُوا إِلَيَّ مِمَّا تَزْعُمُون ﴿ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة :٤١) .

فَقَالَتْ **مَالَقَة** : أَتَتْرُكُونِي بَينَكُمْ هَمَلاً ، وَلِمَ تُعْطُونِي فِي سَيِّدِنَا أَمَلاً ، وَلِمَ وَلِيَ البَحْرَ العَجَاجَ ، وَالسُّبُلُ الفِجَاجُ ، وَالجَنَّاتُ الأَثِيرَة ، والفَاكِهَة الكَثِيرَة ، لَدَيَّ مِنَ البَهْجَة مَا تَسْتَغْنِي بِهِ الحَمَامُ عَنِ الهَدِيلِ ، وَلا تَجْنَحُ الأَنْفُسُ الرِّقَاقُ الحَوَاشِي إِلَى تَعْوِيضٍ عَنْهُ وَلا تَبْدِيل ؛ فَمَا لِي لا أُعْطَى فِي نَادِيكُم كَلامًا ، وَلا أَنْشُرُ فِي جَيشِ فَخَارِكُمْ أَعْلامًا ؟

فَكَأَنَّ الأَمْصَارَ نَظْرَتُهَا ازْدِرَاءً ؛ فَلَمْ تَرَ لِحَدِيثِهَا فِي مَيدَانِ الذِّكْرِ إِجْرَاءً ؛لأَنَّهَا مَوطِن لا يُحْلَى مِنْهُ بِطَائِلٍ ، وَنَظُنُّ البِلادَ تَأَوَّلَتْ فِيهَا قَولَ القَائِلِ :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ فَخَيرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَقَالَتْ **مُرْسِيَة** : أَمَامِي تَتَعَاطَونَ الفَخْر ، وَبِحَضْرَةِ الدُّرِّ تُنَفَّقُونَ الصَّخْر ؟ إِنْ عُدَّتْ المَفَاخِر ؛ فَلِي مِنْهَا الأَوَّلُ وَالآخِرُ ، أَينَ أَوشَالُكُمْ مِنْ بَحْرِي ، وَخَرَزُكُمْ مِنْ لُؤْلُؤِ نَحْرِي ، وَجَعْجَعَتُكُمْ مِنْ نَفَثَاتِ سِحْرِي ؟ فَلِيَ الرَّوضُ النَّضِيرُ ، وَالمَرْأَى الذِي مَا لَهُ مِنْ نَظِير ، وَزَنَقَاتِي التِي سَارَ مَثَلُهَا فِي الآفَاقِ ، وَتَبَرْقَعَ وَجْهُ جَمَالِهَا بِغُرَّةِ الإِصْفَاقِ ، فَمِنْ دَوحَات ، كَمْ لَهَا مِنْ بُكُور وَرَوحَات ، وَمِنْ أَرْجَاء ، إِلَيهَا تُمَدُّ أَيدِي الرَّجَاءِ ؛ فَأَبْنَائِي فِيهَا فِي الجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّة مُودَعُون ، يَتَنَعَّمُونَ فِيمَا يَأْخُذُونَ وَيَدَعُون ، وَلَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ وَلَهُمْ فِيهَا مَا يَدَّعُون . فَانْقَادُوا لأَمْرِي ، وَحَاذِرُوا اصْطِلاءِ جَمْرِي ، وَخَلُّوا بَينِي وَبَينَ سَيِّدِنَا أَبِي زَيد ، وَإِلاَّ ضَرَبْتُكُمْ ضَرْبَ زَيد ؛ فَأَنَا أَولاكُم بِهَذَا المَلِكِ المُسْتَأْثِرِ بِالتَّعْظِيمِ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيم﴾ (فصلت :٣٥) .

فَقَالَتْ **بَلَنْسِيَة** : فِيمَ الجِدَال وَالقِرَاع ؟ وَعَلامَ الاسْتِهَام وَالاقْتِرَاع ؟ وَإِلامَ التَّعْرِيض وَالتَّصْرِيح ؟ وَتَحْتَ الرَّغْوَة اللَّبَنُ الصَّرِيح ، أَنَا أَحُوزُه مِنْ دُونَكُمْ ؛ فَأَخْمِدُوا نَارِي تَحَرُّكُكُم وَهُدُونكم ؛ فَلِي المَحَاسِنُ الشَّامِخَة الأَعْلام ، وَالجَنَّات التِي تُلْقِي إِلَيهَا الآفَاق يَدَ الاسْتِسْلامِ ، وَبِرُصَافَتِي وَجِسْرِي أُعَارِضُ مَدِينَةَ السَّلامِ ؛ فَأَجْمَعُوا عَلَى الانْقِيَادِ لِي وَالسَّلام ، وَإِلاَّ فَعَضُّوا بَنَانًا ، وَاقْرَعُوا أَسْنَانًا ؛ فَأَنَا حَيثُ لا تُدْرِكُونَ وَأَنَّى ، وَمَولانَا لا يُهْلِكُنَا بِمَا فَعَل السُّفَهَاءُ مِنَّا .

فَعِنْدَ ذَلِكَ ارْتَمَتْ جَمْرَةُ **تُدْمِيرَ** بِالشَّرَارِ ، وَاسْتَدَّتْ أَسْهُمُهَا لِنُحُورِ الشِّرَارِ ، وَقَالَتْ : عِشْ رَجَبا ، تَرَ عَجَبا ، أَبَعْدَ العِصْيَانِ وَالعُقُوقِ ، تَتَهَيَّئِينَ لِرُتَبِ ذَوِي الحُقُوق ؟ هَذِهِ سَمَاءُ الفَخْرِ فَمَنْ ضَمَّكِ أَنْ تَعْرُجِي ، لَيسَ بِعُشَّك فَادرجي ، لَكِ الوَصَبُ وَالخَبْلُ ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيتُ قَبْلُ﴾ (يونس :٩١) ، أَيَّتُهَا الصَّانِعَةُ الفَاعِلَةُ ، مَنْ أَدَّاكِ أَنْ تُطِرِّي وَمَا أَنْتِ نَاعِلَة ؟ مَا الذِي يُجْدِيكِ الرَّوضُ وَالزَّهْرُ ؟ أَمْ مَا يُفِيدُكِ الجَدْوَلُ وَالنَّهْر ؟ وَهَلْ يُصْلِحُ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ؟ هَلْ أَنْتِ إِلاَّ مَحَطُّ رَحْلِ النِّفَاقِ ، وَمَنْزِلٌ مَا لِسُوقِ الخِصْبِ فِيهِ مِنْ نِفَاق ؟ ذَرَاكِ لا يَكْتَحِلُ الطَّرْفُ فِيهِ بِهُجُوع ، وَقِرَاكِ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوع ؛ فَإِلامَ تَبْرُزُ الإِمَاء فِي مَنَصَّةِ العَقَائِلِ ؟ وَلَكِن اذْكُرِي قَولَ القَائِلِ :

بَلَنْسِيَةٌ بِينِي عَنِ القَلْبِ سَلْوَةً ، فَإِنَّكِ رَوضٌ ، لا أَحِنُّ لِزَهْرِكِ

وَكَيفَ يُحِبُّ المَرْءُ دَارًا تَقَسَّمَتْ عَلَى صَارِمِي جُوعٍ وَفِتْنَةِ مُشْرِكِ ؟

بَيدَ أَنِّي أَسْأَلُ اللهَ تَعَالى أَنْ يُوقِدَ مِنْ تَوفِيقِكِ مَا خَمَدَ ، وَيُسِيلُ مِنْ تَسْدِيدِكِ مَا جَمَدَ ، وَلا يُطِيلُ عَلَيكِ فِي الجَهَالَةِ الأَمَد ، وَإِيَّاهُ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُ أَنْ يَرُدَّ سَيِّدِنَا وَمَولانَا إِلَى أَفْضَلِ عَوَائِدِهِ ، وَيَجْعَلَ مَصَائِبَ أَعْدَائِهِ مِنْ فَوَائِدِهِ ، وَيُمَكِّن حُسَامَهُ مِنْ رِقَابِ المُشَغِّبِينَ ، وَيُبْقِيهِ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة وَمِنَ المُقَرَّبِينَ ، وَيَصِلُ لَهُ تَأْبِيدًا وَتَأْبِيدًا ، وَيُمَهِّدُ لَهُ الأَيَّام حَتَّى تَكُونَ الأَحْرَارَ لِعَبِيدِ عَبِيدِهِ عَبِيدًا ، وَيَمُدُّ عَلَى الدُّنْيَا بِسَاطَ سَعْدِهِ ، وَيَهَبَهُ مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ :

آمِين آمِين لا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أُضِيفَ إِلَيهَا أَلْفَ آمِينَا

ثُمَّ السَّلام الذِي يَتَأَنَّق عَبَقًا وَنَشْرًا ، وَيَتَأَلَّقُ رَونَقًا وَبِشْرًا ، عَلَى حَضْرَتِهِمْ العَلِيَّة ، وَمَطَالِع أَنْوَارِهِمْ الجَلِيَّة ، وَرَحْمَة اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ » .